الحرية

التحرر من وهم المعرفة

آلت أحوال أفكارنا إلى حالة أشبه بخلية نحل فقدت ملكتها، أفكار، أفكار و أفكار تئز، تطن و تدور و محاطاً بها يحيا الإنسان يملؤه البؤس و القلق... لنتمكن من التعرف على الحياة و إدراكها يجب أن يكون الفكر هادئاً ساكناً كبحيرة من الماء لا أمواج فيها و لا تموجات... لتكون متحسساً للحياة لا بد أن يكون فكرك كمرآة لا غبار عليها.

لكن أفكارنا كخلية نحل مضطربة لا هي كالمرآة النظيفة و لا هي كالبحيرة الساكنة، فإذا اعتقدنا بأننا قادرون على معرفة شيء ما بعقول كهذه أو أننا قادرون على تحقيق شيء ما أو أننا قادرون غلى أن نكون شيئاً ما فنحن في عداد المخطئين.

من الضروري أن نتحرر من هذا الطوفان الفكري الجارف، أن تحيا في دوامة من أفكار تدور و تدور لا يعني أن فكرك بخير بل هو دليل فكر معتل... عندما يكون الفكر في نقائه الكامل؛ عندما يكون في سلامته الكاملة على تلك الأفكار أن ترحل... يبقى الوعي في هذه الحالة و ترحل الأفكار، أما

obeikandi.com

عندما يكون الفكر معتلاً فالوعي هو الذي يرحل و لا نحظى سوى بصحبة حشود الأفكار... إننا نعيش من الصباح حتى المساء و من المساء حتى الصباح و من الولادة حتى الموت في هذا الجحيم من الأفكار... كيف لنا التحرر منها و نحن منهمكون بجمع المزيد منها ؟ هذا غير ممكن كيف يمكن التحرر من الأفكار ؟

علينا أن نعلم شيئاً في البداية: قبل الشروع بمحاولة التحرر من الأفكار علينا التوقف عن جمع أكداس منها... إذا أردنا التخلص من أوراق شجرة ما و نحن مواظبون على تزويد تلك الشجرة بالماء، فكيف لنا الحصول على ما نريد ؟ عند قيامنا بري الجذور نبدو وكأننا لا نعلم بينها و بين الأوراق، هناك علاقة عميقة و حميمة بينهما، عندما نروي الجذور فإن الماء سيمضي بطريقه إلى الأوراق فهما شيئين لا انفصال بينهما.

و هكذا نجمع الأفكار و نروي جذورها، و عندما تصاب عقولنا و أفكارنا بالتعب جراءها نبدأ بالبحث عن طريقة لتهدئتها... إذا أردنا منع أوراق الأفكار من النمو علينا في البداية أن ندرك كيف نروي جذورها، و عند التوقف عن ري الجذور فلن ننتظر طويلاً حتى تبدأ الأوراق بالتساقط.

كيف نروي أفكارنا ؟

لآلاف السنين و نحن نتوهم أننا قادرون على تحقيق المعرفة من خلال تجميع أفكار أناس آخرين، بكل تأكيد هذا خطأ وغير صحيح فلا يمكن لأي إنسان مهما كان أن يحقق أية معرفة بتكديسه أفكار الآخرين فالمعرفة تأتي من الداخل والأفكار تأتي من الخارج، المعرفة ملكنا أما الأفكار فعادة ما تكون لغيرنا؛ عادة ما تكون مستوردة... المعرفة خفقان لوجودنا و تعبير عن مكنونات داخلنا، أما الأفكار فهي تجميع و تكديس لما قاله الآخرون... يمكن الحصول على الأفكار من الكتب التي ندعوها مقدسة ومن غير المقدس منها أو من كلام المعلمين و قادة الأديان و سواهم.....

لا يمكن لما نحصل عليه من أفكار الآخرين أن يصبح معرفة لنا و إنما طرق و وسائل نغطي بها جهلنا، و عندما يغطي أحدنا جهله بهذه الطريقة فلن يستطيع تحقيق المعرفة لأننا نظن ما لدينا معرفة لنا فنعتصم به بكامل إمكاناتنا و وجودنا، نتمسك بتلك الأفكار و نعتصم بها و لا نمتلك شجاعة التخلي عنها لتيقننا الزائف بأنها معارفنا و عندما يفقد أحدنا معارفه يصبح جاهلاً... ولكن تذكر: مهما تمسك الإنسان بالأفكار لا يمكن أن يصبح بواسطتها ذا معرفة.

obeikandl.com

عندما يحفر أحدنا بئراً فإنه يقوم في البداية بإزالة بعض الحجارة و بعض الطبقات الترابية و عندها يتدفق الماء من جوانب البئر ليملأها، فالماء موجود إذاً و لا حاجة بنا لاستحضاره من أي مكان آخر، فقط مجموعة من العوائق والموانع تمت إزالتها و تدفق الماء من تلقاء نفسه... لسنا بحاجة للقدوم بالماء و سكبه في البئر .

و كذلك المعرفة كامنة في الداخل و لا حاجة لاستحضارها من أي مكان آخر... تختفي ينابيع المعرفة في داخلنا و لكن هناك ما يحول بيننا و بينها وكل ما علينا هو إزالة تلك العوائق و ستبدأ ينابيعها بالتدفق لتملأ وجودنا.

ولكن، يمكننا أن نحفر بئراً كما يمكننا أن ننشئ بركة صناعية ولكن تختلف جوهرية و طريقة إنشاء كل منهما، فلإنشاء البركة لست بحاجة للبحث عن ينابيع ماء... حفر بئر و إنشاء بركة صناعية عمليتان متعاكستان تماماً ففي البركة لا نحفر و لا نزيل طبقات تراب و حجارة بل على العكس علينا الحصول على بعضها لإقامة جدران البركة وعند اكتمالها لا يظهر الماء من تلقاء نفسه بل علينا الحصول عليه من آبار أناس آخرين لنملأ به بركتنا... في الظاهر لا فرق بين البركة و البئر فكلاهما فيه ماء و بالتالي توهمنا

البركة و تجعلنا نعتقدها بئراً ، لكن الفرق بين البركة والبئر هو تماماً كالفرق بين الأرض و السماء وهو تماماً كالفرق بين الأفكار و المعرفة .

أول اختلاف بين البركة و البئر هو أن ماء البركة ليس ماءها و لا يمكنك إرواء أي ظمأ في هذا العالم بماء ليس ماءك... ماء البركة مستورد و سرعان ما سيصبح نتناً و ذا رائحة لأن كل ما ستعطيه ميت و ليس حي... لكن ماء البئر ماؤها الذي لا يمكن أن يصبح نتناً فله منبعه و له مجراه.

عمليتان مختلفتان و متعاكستان تحدثان في كل من البركة والبئر... تخشى البركة أن يأتي أحدنا ليأخذ من مائها لأن ذلك لو حصل ستصبح فارغة، بينما تريد البئر قدوم أحدنا ليشرب ماءها لتتمكن من الحصول على ماء جديد و عذب... ماء أكثر حياة يملأ البئر عندما يأخذ أحدهم بعضه... تنادي البئر « تعال و خذ ماءً فأنا أريد و أحب المشاركة » بينما تصرخ البركة « لا تلمس مائي؛ لا تأخذ منه شيئاً. » البركة بحاجة لمن يأتي و يصب فيها الماء لتحصل بذلك على المزيد من الثروة، بينما تريد البئر من يملك دلواً فارغاً ليملأه بالماء القديم فتحصل على ماء جديد... تحب البئر المشاركة و تريد البركة تكديس الثروة للبئر مجراها الذي يصلها بالمحيط، فقد تبدو

obeikandl.com

صغيرة لكنها عميقة في داخلها و لها اتصالها باللامحدود، بينما مهما كانت البركة كبيرة فلا يمكنها الاتصال بأحد، بل أنها مغلقة و تنتهي بذاتها فلا مجرى لها يزودها بالماء و ما لها اتصال باللامحدود.

إذا ذهبت و تحدثت للبركة عن المحيط فستبدأ بالضحك وتقول « ما المحيط ؟ لا يوجد شيء بهذا الاسم في هذا العالم، يوجد بركة لا غير أما المحيط فليس سوى خيال»... ليست لديها أية فكرة عنه.

أما إذا ذهبت إلى البئر و امتدحت جمالها فستفكر « ما الذي أملكه ؟ يأتي كل شيء من المحيط... ما أنا ؟ كل ما يأتيني متعلق بالبعيد البعيد؛ متعلق بشيء آخر »... لا يمكن أن يكون للبئر « أنا » بينما يوجد مثل ذلك لدى البركة، و الجميل في الأمر أن البئر كبيرة جداً و البركة غاية في الضآلة للبئر ماؤها و ثروتها و ليس للبركة ماء و لا ثروة .

هناك حالتان لا ثالثة لهما للعقل الإنساني، إما أن نجعله بركة أو أن نحفر فيه بئراً، أما من يجعل من عقل بركة فسيتحول ببطء تدريجي إلى الجنون.

تحولت عقولنا إلى برك و مستنقعات و لم نتمكن من إنشاء أية بئر، قام كل منا بإنشاء بركته و بدأ يجمع الأشياء فيها من

هذا العالم – أشياء من الكتب، أشياء من المخطوطات والنصوص وأشياء من الصحف و نشرات الأخبار... و يعتقد بذلك أنه أصبح متعلماً و ذا معرفة و يسمي نفسه مثقفاً، لقد ارتكبنا خطأ البركة نفسه... تظن البركة أنها أصبحت بئراً وذلك لأن في كليهما ماء .

يمكنك أن تجد معرفة عند العالم، يمكنك أن تجد معرفة عند المعلم و يمكنك أيضاً أن تجد معرفة عند الشخص الواعي، لكن العالم و المعلم بركتان و الشخص الواعي بئر والفرق بينهما عميق و جوهري... إن معارف العلماء و المعلمين مستوردة و منتهية الصلاحية و كل ما نواجهه في العالم من مشاكل هو بسبب معارف المعلمين... ما الصراع الطائفي إلا صراع بين معارف المعلمين و ما الصراعات السياسية إلا صراعات بين أفكار قادة السياسة و الدين و الصراعات المرضية في معظمها صراعات مع أفكار التجار و جميعها أفكار و معارف نتنة و ذات صلاحية منتهية.

كل مشاكل هذا العالم بفعل عقول و أفكار تحولت إلى برك و إلا لما كان فيه غير بشر... لما وجد مسيحي و لا مسلم و لا غيره فهذا كله جدران لبرك مهر المعلمون ماءها بتواقيعهم، فإذا كان الماء ممهوراً بتوقيع المعرفة المحمدية فهو مسلم وإذا

obeikandi.com

كان ممهوراً بتوقيع المعرفة المسيحية فهو مسيحي و قس على ذلك... أما الشخص الواعي فلا يحصل على مائه من أي مكان فله ينابيعه التي تأتي من الوجود لذلك لا يستطيع الارتباط بأي طائفة أو مذهب أو نظرية، و لكن أينما وجدت معلماً ستجد طائفة.

جعلنا من أفكارنا بركاً صناعية و اعتصمنا حولها... و تصرخ البركة كما ذكرنا « لا تقتربوا من مائي، فإذا فعلتم سأصبح فارغة؛ لن يتبقى في شيء... ثروتي مستعارة فلا تمسوها. »

و تذكر: الثروة التي تتضاءل بالعطاء و المشاركة مستوردة وزائفة أما الثروة التي تنمو بالعطاء و المشاركة فحقيقية... الثروة التي تنفذ بالمشاركة ليست ثروة و إنما تراكم، فقط تلك التي تنمو وتزداد بالعطاء هي ثروة فعلية... تعتمد نوعية الثروة على هذا المبدأ و على من يخشى تناقص ثروته بالمشاركة توخي الحيطة و الحذر .

و عليه كل الثروات المستعارة مصائب لأنها ليست حقيقية لذلك نخشى نفاذها و ترانا نتمسك بها أكثر و أقوى، و بالمثل نتمسك بأفكارنا و أحياناً نفضلها على حياتنا... لم تأتي كل هذه النفايات التي جمعناها في أفكارنا عن طريق الصدفة بل نحن من أعد العدة لذلك؛ نحن من يجمعها و نحن من يرعاها.

لن نستطيع التحرر من الأفكار إذا اعتقدنا أنه يمكن لشمس المعرفة أن تشرق في سماء أخدنا من مجرد مراكمتها... كيف لنا التحرر !! نبدو كمن يزود بالماء جذور شجرة و ينزع أوراقها، بالطبع هذا لا يجوز... علينا في البداية أن نعلم شيئاً مهماً: تختلف المعرفة تمام الاختلاف عن جمع الأفكار، فالأفكار المستلفة من الآخرين ليست معرفة؛ لا يمكن للأفكار المستقاة من منابع الآخرين أن تقود أحداً إلى الحقيقة أو إلى ذاته، تقود الأفكار إلى وهم زائف بأننا حققنا معرفة لكنها في الحقيقة معرفة وهمية و لم نحقق في الحقيقة سوى الحفاظ على جهلنا.

نكون أشبه و الحالة هذه بأحدهم يقرأ العديد العديد من الكتب عن السباحة و تعلمها بهدف تقديم بحث أو تأليف كتاب... هذا ممكن و بسيط ولكن لو دفع به أحدهم إلى النهر فمن المؤكد أنه لن يقوى على السباحة، قرأ و درس الكثير لكنه أخفق عند الممارسة العملية.

أبحر أحد مثقفي المسلمين و يدعى نصر الدين يقطع نهراً، جالساً في الزورق يتبادل الحديث مع قائده -في الحقيقة إذا وجد مغرورو الثقافة فرصة لإثبات جهل أحدهم فهم لا يفوتوها، فسأله « أتجيد القراءة ؟ » فأجاب المراكبي « لا،

أعرف فقط كيف أتحدث أما القراءة و الكتابة فلا أعلم عنهما شيئاً ؟»

فقال نصر الدين « فقدت ربع حياتك بعدم قدرتك على القراءة، لا يمكن لأحد أن يحصل و لو على القليل من المعرفة دون القدرة على القراءة... أحمق » لكن الرجل ضحك صامتاً.

ابتعدا قليلاً في عمق النهر ثم عاد نصر الدين و سأل « ماذا تعرف عن الرياضيات و الحساب ؟ »

فأجاب الرجل « كل ما أعرفه عن ذلك هو العد بالأصابع.»

فقال نصر الدين « فقدت ربعاً آخر من حياتك لعدم قدرتك على الحساب لأنك لن تستطيع أن تكسب شيئاً، إذا أردت أن تكسب فعليك أن تجيد الحساب ؟؟. ما الذي ستربحه في حياتك ؟ فقدت نصف حياتك حتى الآن لعدم قدرتك على القراءة و الحساب.»

عندها هبت زوبعة قوية قلبت القارب رأساً على عقب ثم غرق، فصاح البحار « أتجيد السباحة ؟ »

صرخ نصر الدين مرتعباً « لا ، لا أجيدها.»

فقال البحار « فقدت حياتك بكاملها... لا أعلم شيئاً عن الحساب و القراءة باللغات لكني أجيد السباحة... وداعاً فقد فقدت حياتك كاملة.»

التعرف على الروح و حقيقة الكون من خلال الكتب والمخطوطات فلا بد من التعليم الذاتي هنا، و بالمثل الدين وحقيقته فمهما تنوعت كتبه، مدارسه وجامعاته فلا يمكن التعرف على شيء منه إلا من خلال التعلم الذاتي و التدريب على الجسد.

يمكن الكتابة عن أمور كهذه في المخطوطات، النصوص والنظريات، ثم إعادة قراءة ما كتب عدداً لا ينتهي من المرات كما يمكن فهمه و حفظه عن ظهر قلب و يمكن تعلمه وإخبار الآخرين به أما تحقيق المعرفة فلا يمكن إلا من خلال العمل الشخصي .

لا يعد جمع الحقائق و مراكمة آراء الآخرين دليل معرفة و إنما دليل جهل، و الشخص الواعي و المتمتع بالصحوة متحرر من معارف كهذه و لا يعرف إلا نفسه... بمعرفة فردية كهذه يكف الفكر غن كونه خلية نحل مضطربة هائجة و يتخول إلى مرآة نظيفة؛ يتحول إلى بحيرة هادئة هانئة. نعم، أفكارنا خلايا مضطربة من أفكار تعهدناها بالرعاية و الاحتضان لاعتقادنا بأنها معارف، جعلنا لها متسعاً في منازلنا ومنحناها تصريح إقامة دائمة؛ جعلنا عقولنا فنادقاً يمكن لكل من يرتدي ثوب المعرفة أن يقيم بها قدر ما يشاء، في حشود دائمة

التضخم و النمو كهذه يتعالى ضجيج الدخلاء و صراخهم ليعتبر صاحب الصوت الأقوى معلماً... أفكارنا فنادق مضطربة و لا نعلم من المعلم فيها.

لا تريد أي فكرة المغادرة، و هل يكن لمن دعوناه بأنفسنا للإقامة أن يغادر ؟! من السهل أن تدعو زائراً دخيلاً و لكن التخلص منه ليس بالسهولة ذاتها... بدأ تجمع هذه الحشود من الطفيليات في فكر الإنسان منذ آلاف الأعوام و لو طلبت منك أن تودعها لما استطعت مباشرة و بسهولة و لكن ذلك ممكن لو استطعنا استيعاب حقيقة هذا الوهم الذي يعترينا... احتفظنا بتلك الأفكار لتوهمنا بأنها معارف و الشيء الأول الذي علينا فهمه هو أن كل معرفة مستمدة من معارف الآخرين هي معرفة وهمية و إذا استوعبنا هذا جيداً نكون قد قطعنا الجذر الأساسي لحشود الأفكار و أوقفنا تزويده بالماء كان حكيم عجوز يمر بغابة برفقة أحد المريدين الشباب، هبط الليل وبدأت تظلم فسأل الحكيم « أي بني، أتعتقد أن هناك ما يستدعي الخوف على هذه الطريق ؟ نمر بغابة كثيفة و الظلام بدأ يهبط، أيمكن أن نواجه ما يجب أن نخاف منه ؟ ».

دهش المريد الشاب لأن السؤال عن الخوف ليس من طبيعة الساني سواءً أكان في الظلام أم في النور؛ سواءً أكان في

الغابة أم في السوق، مدهش أن يسأل الساني عن الخوف و لم يشعر به هذا العجوز من قبل، ما الذي تغير الآن و لم هو خائف؟ لا بد أن يكون هناك خطأ ؟

تابعا سيرهما و ازداد الليل ظلمة فعاد الشيخ و سأل « أيوجد ما يستدعي الخوف ؟ أسنصل قريباً إلى القرية المجاورة ؟ كم تبعد ؟ » توقفا عندها بجوار بئر ماء و استراحا لغسل الوجوه والأيدي، تناول الشيخ حقيبة كتفه و قال للمريد « خذ هذه وانتبه جيدا لها. »

فكر الشاب « يجب أن يكون في الحقيبة شيء مميز و إلا لما كان من الضروري الخوف و لا حتى الانتباه. »

من المستغرب أيضاً أن يعير الساني رعاية واهتماماً لشيء ما وعندها لن يكون هناك معنى لكونه سانياً؛ سيكون رجل عائلة، أما الساني فلا علاقة له بالخوف و الحذر .

بدأ الشيخ يغتسل... أدخل الشاب يده في الحقيبة فوجد سبيكة ذهبية، فهم الآن سبب الخوف... رمى السبيكة بعيداً و وضع مكانها حجراً بنفس الوزن و الحجم... عاد الشيخ بسرعة، تناول حقيبته ، تفقد محتوياتها باللمس... رفعها إلى كتفه ثم تابعا السير.

بعد قليل عاد الشيخ و سأل« إنها مظلمة جداً الآن، هل ضللنا الطريق ؟ هل هناك أي خطر ؟ »

فأجاب الشاب « لا تقلق، لقد تخلصت من الخوف؛ لقد رميته بعيداً . »

صدم الشيخ للوهلة الأولى، و تفقد حقيبته فوجد حجارة و ليس ذهباً، دهش للحظة ثم بدأ يضحك وقال « كم كنت أحمقاً، كنت أحمل حجارة شعرت بالخوف لأنني كنت أحسبها ذهباً.» عندما أدرك أنه يحمل حجارة قذفها بعيداً و قال « من الصعب أن نجد طريقنا في الظلام لذلك سننام هنا الليلة. » بالطبع ناما في الغابة تلك الليلة بسلام آمنين.

عندما تظن أن أفكارك سبائك ذهبية ستوليها كل اهتمام ممكن و ستبقى منجذباً إليها، لكنني أود إخبارك بأنها ليست كذلك، إنها حجارة يثقل حملها ليس إلا... إن ما نظنه معرفة ليس معرفة و لا يمت لها بصلة، إنه حجارة و ليس ذهباً.

ما المعرفة التي نحصل عليها من الآخرين سوى حجارة أما تلك التي تنبع من داخلنا فهي ذهب، في اليوم الذي ندرك فيه أننا نحمل في حقائبنا حجارة نكون قد حسمنا أمرنا فلا توجد صعوبات في التخلص من الحجارة.

لا توجد صعوبة في التخلص من النفايات، الصعوبة وحدها في إلقاء الذهب بعيداً... لا تستطيع التخلص من أفكارك ما دمت تحسبها معرفة و بذلك سيبقى فكرك متعباً، قد تجرب آلاف الطرق لتجعله مستقرً هادئاً و ستفشل جميعها لأنك تصر في الأعماق على الاحتفاظ بالأفكار بوصفها معرفة... نواجه مصاعب الحياة أحياناً بسبب فهمنا الخاطئ و كون الشيء الذي أمامنا هو في الحقيقة شيء مختلف عما نظن و عندها تبدأ المشاكل... عندما يعتقد أحدنا أن الحجر سبيكة ذهب تبدأ مشاكله و عندما يدرك أن الحجر حجر ينتهي الأمر.

لذلك فإن متعة معارفنا ليست متعة حقيقية و هذه حقيقة علينا أن نستوعبها جيداً، و لكن كيف لنا ذلك ؟ أتكفينا قراءة هذه السطور لنفهمها ؟ إذا حصل ذلك سيكون فهمنا مستعاراً و باطلاً، علينا أن ننظر، نبحث و نلاحظ بأنفسنا .

لو قال المريد الشاب « فلنتابع السير فليس هناك ما يدعو للخوف و القلق، فحقيبتك مليئة بالحجارة و ليس بالذهب. » لن يعني هذا بالنسبة للشيخ شيئاً ما لم يتأكد بنفسه بالنظر في الحقيبة، لو قال الشاب هذا لما صدقه الشيخ و سيكتفي بالضحك عليه و سيعتقد أنه غلام جاهل لا يعرف شيئاً، أو أنه سيصدقه و يكون تصديقاً مشوباً بالخوف لأن فكرة الحفاظ

obeikandi.com

على السبيكة لا زالت تسكن أعماقه... لكن التحقق الفردي مما في الحقيبة هو الذي أحدث الاختلاف .

من الضروري أن ينظر كل منا في حقيبة أفكاره ليرى فيما لو كان الذي يظنه معرفة حقيقية أم أنه لم يجمع سوى ركام من الأفكار... نجمع جميعاً نصوصاً من الكتب التي ندعوها مقدسة و أخرى من غير المقدس منها، نحفظ كلام المعلمين ونكرره؛ نقيم عليه أبحاثاً؛ نكتشف اكتشافات فيه ثم نختلف و ننقسم...

جنون و حماقة كل ما نفعل و لا علاقة له بالمعرفة، و لا يمكن لأي بارقة أمل و لا يمكن لأي نور أن يشرق في حياتك جراء هذا... ستقوم بجمعك ركامات كهذه باختلاق وهم داخلي بأنك قد حققت ثروة معرفية؛ بأنك قد أصبحت معلماً بارعاً و بأنك تملك الكثير و خزائنك عامرة، تحيا حياتك بهذه الطريقة و لن تفوز سوى بخسارتها.

قدم مريد شاب للإقامة و التعلم في دير حكيم عجوز... بعد عدة أيام من تلك الإقامة بدأ الشاب يشعر بأن هذا المعلم لا يعرف شيئاً فهو يردد الكلام نفسه كل يوم، قرر بعدها أن عليه المغدرة و البحث عن معلم آخر فهذا المكان لبس مناسباً له.

في اليوم الذي كان الشاب يعتزم المغادرة فيه زار الدير راهب آخر... اجتمع نزلاء الدير في تلك الأمسية و أخذوا يتبادلون الحديث في أمور عدة، كان الراهب الضيف واسع الاطلاع وذا معرفة جعلت المريد الشاب يعتقده مثالاً لمعلم نموذجي فقد سحر و لساعتين من الحديث المتواصل جميع الحضور، اعتقد المريد الشاب بأن الحكيم الشيخ يعتصر ألماً و غيرة لأنه بلغ كل هذا العمر و لم يحقق جزءً مما لدى هذا الضيف.

عند انتهاء الحديث بعد ساعتين نظر الضيف إلى الحكيم وسأله « كيف تقيم كلامي ؟ ».

فقال الحكيم « كلامي ؟! تحدثت طويلاً لكن لم تكن أية كلمة لك، أصغيت لك لتقول شيئاً لكنك لم تقل.»

فقال الراهب الضيف « إذا لم أكن أتحدث فمن الذي تحدث طيلة الساعتين الماضيتين إذاً ؟ ».

فقال الشيخ « إذا كنت تريد رأيي الحقيقي فالكتب والنصوص هي التي كانت تتحدث من داخلك، أما أنت لم تتحدث و لم تتفوه بحرف، كل ما كنت تقوم به هو طرح وتقيؤ ما جمعت الأمر الذي جعلني أخشى كونك رجلاً مريضاً... لساعتين كاملتين و أنت تتقيأ كل ما جمعت في معدتك حتى امتلأت الغرفة بالقذارة و النتانة... لم تظهر أي

obeikandi.com

رائحة من عطر المعرفة فيما قلت لأن كل ما تدخله من الخارج و تعيد طرحه من الداخل لن يكون غير نتانة و تقيؤ ... لم تتحدث بشيء؛ لم تقل كلمة واحدة. »

عند سماعه لحديث الشيخ عاد الشاب عن قرار المغادرة و قرر البقاء، فقد علم و لأول مرة بأن هناك عدة أنماط من المعرفة أحدها نجمعه من الخارج و آخر يشرق من داخلنا، أما ذلك الذي يأتي من الخارج فعبودية و قيود و لا يمكن له أن يحررنا من شيء، ونتحرر فقط اعتماداً على القادم من داخلنا العميق.

عليك في البداية عندما تنظر في داخلك أن تجيب عن السؤال «أتعلم كل ما تعلم ؟» من الضروري أن نسأل أنفسنا عن كل ما نظن بأننا نعلمه « أنعلمه حقاً »، فإذا كان الجواب « لا أعلم» فستبدأ كل سبائكنا الذهبية بالتحول التدريجي البطيء إلى حجارة... من الممكن أن تخدع كل إنسان في هذا العالم لكن من المستحيل أن تخدع نفسك.

لا يمكن لأحد أن يخدع نفسه، فالشيء الذي لا نعرفه... لا نعرفه، إذا أنا سألتك « أتعرف الحقيقة ؟ » فإذا هززت رأسك وقلت « نعم أعرفها » فأنت غير صادق بما فيه الكفاية... اسأل نفسك داخلياً « أعلم الحقيقة ؟ أم أنني قبلت كل ما سمعت ؟» فإذا كنت لا تعلم فتلك حقيقة عديمة القيمة، فكيف لشيء

لا أعرفه أن يغير حياتي، تصبح الحقيقة التي نعرفها فقط ثورة في حياتنا و تلك التي لا نعرفها تساوي فلساً بالكثير؛ إنها حقيقة مزيفة لا بل أنها ليست حقيقة على الإطلاق؛ إنها مستوردة و لن تكون قادرة على تغيير شيء.

يشبه ذلك أن تسأل أحدهم « أتعلم حقيقة روحك ؟ » و يجيبك « نعم، أعرف كل شيء فقد قرأت عن ذلك في الكتب و أتعلم من معلمي و من شيخي في المعبد...» تعلم الإنسان الترديد الببغاوي لكل ما يتعلمه ولكن، هل للترديد الببغاوي علاقة بالمعرفة ؟. إذا ولد أحدنا في أسرة مسلمة سيكون نوعاً من الببغاوات، و إذا ولد في أسرة مسيحية سيكون نوعاً ثانياً منها و إذا ولد في أسرة درزية سيكون نوعاً ببغاوياً ثالثاً، و هكذا لدينا مئات الأنواع من الببغاوات و في جميع الحالات لا نتعدى كوننا ببغاوات... نواظب طيلة حياتنا على ترديد كل ما نتعلمه و نفتقد للمناقشة و الاعتراض بسبب تواجد العديد من الببغاوات المتشابهة حولنا... توافق الببغاوات حولك على كل ما تقول لأنها تعلمت جميعاً الطريقة نفسها... في اللقاءات الدينية وما أكثرها يتحدث العالم أو الشيخ أو الواعظ و لا نملك سوى هز الرؤوس موافقين على صواب ما يقول لأننا نتعلم جميعاً

العلم نفسه، و يحدث الأمر نفسه عندما نقرأ في الكتب حيث نوافق على صواب كل ما ذكر فيها .

وقعت الإنسانية جمعاء بخديعة المعرفة فكانت تلك الخديعة مؤامرة ضد الإنسان... علينا التخلص من هذه المعارف و إلقاؤها بعيداً و عندها فقط يمكننا الحصول على المعرفة التي يهبنا وجودها النور و يمكننا من رؤية الروح، و هذا بالطبع غير ممكن مع المعرفة المزيفة... لا تمتلك المعرفة المزيفة نوراً، المنزل مظلم و المصباح مطفأ ولكن أقنع بعض الناس بعضهم الآخر أنه مضاء، و بعد سماعنا لهذا يتردد و يتكرر مراراً و تكراراً بدأنا نرى نحن أيضاً المصباح المطفأ مضاءً و هذا سببه وجود خوف في مكان ما داخلنا... يقولون بأنهم يرون نور المصباح ومن لا يستطيع رؤيته سيذهب إلى الجحيم أو أنه جاهل لذلك سيبدأ بالرؤية.

جاء زائر غريب إلى ملك عظيم و قال له « الآن تفوقت على العالم بأسره و لم تعد ملابس الإنسان تليق بك، سأحضر لك ملابس الآلهة...» شعر الملك بالطمع لكن عقله كان يقول «كيف من الممكن أن توجد ملابس للآلهة ! » و بالأساس هناك شك بوجودها، لكن طمعه جعله يفكر « من الممكن أن تكون هناك آلهة و لو تمكن من الحصول على ملابسها

سيكون أول إنسان في تاريخ العالم يرتدي مثل تلك الملابس. »
فكيف استطاع الرجل إقناعه ؟. لما كان ملكاً فمن الطبيعي أن يحوز الملايين و المليارات و بإمكانه دفع أي كلفة ممكنة لذلك سأل « كم كلفة ذلك ؟ ».

فأجاب الزائر « ستكلف مئة ألف دينار، لن تصل إلى الآلهة دون أن تدفع رشوة هائلة... ليس الإنسان وحده من يتعامل بالرشوة فالآلهة أذكياء أيضاً و يريدون رشوة، أضف إلى ذلك أن الإنسان فقير و يكتفي بالقليل من المال، أما الآلهة فلا، لا بد أن تكون كومة كبيرة من المال لتنظر إليها ، لا بل لا تستطيع رؤية غير ذلك، المسألة صعبة و نحن بحاجة لمئة ألف على الأقل.»

قال الملك « و ليكن، ولكن تذكر إذا خدعتني ستفقد حياتك، سيكون منزلك منذ اليوم تحت الحراسة المسلحة.»

دفع المبلغ المطلوب و وضع منزل الرجل تحت الحراسة... أصيب الناس بجوار الرجل بالدهشة و الذهول و فكروا « أين هي الآلهة و أين هي جنتها ؟ لا يغادر هذا الرجل منزله أبداً...»

مكث الرجل في منزله و قال « ستكون الملابس جاهزة بعد ستة أشهر. » أثار هذا الكلام حفيظة و شكوك الناس لكن الملك كان مطمئناً فالرجل تحت حراسة سيوف مسلولة فلا

يستطيع الفرار و لا يستطيع الخديعة... انقضت الأشهر الستة فخرج الرجل من منزله يحمل صندوقاً فائق الجمال و قال للجنود « هيا بن إلى القصر، لقد وصلت الملابس اليوم. »

تجمع سكان العاصمة، ملوك و أباطرة من بلدان بعيدة قدموا لرؤية الملابس الإلهية كما تم الإعداد لقداس ضخم... دخل الرجل البلاط حاملاً صندوقه و لم يكن هناك ما يدعو للشك... وضع الصندوق على الأرض، رفع الغطاء و أدخل يده التي أخرجها فارغة و قال للملك « خذ هذه القبعة. » لكن الملك أجاب « لا أرى شيئاً إن يدك فارغة. »

فقال الرجل « دعني أذكرك بشيء، قالت الآلهة لا يستطيع رؤية القبعة و الملابس الأخرى إلا من كان ابناً شرعياً لأبيه، هل ترى القبعة الآن ؟ ».

فقال الملك « بالطبع أراها... » لم تكن هناك أية قبعة بل كانت يد الرجل فارغة تماماً... لم يستطع أحد رؤية شيء لكنهم بدؤوا بالقول « لم يسبق و شاهدنا قبعة بمثل هذا الجمال يا لها من قبعة؛ مميزة؛ مجهشة... لم يسبق و شاهدنا إنساناً يرتدي قبعة بمثل هذا الجمال ...

الملك الآن في مأزق، فقد أجمع الحضور على جمال القبعة... وعنها قال الرجل « و الآن اخلع قبعتك يا مولاي وارتدي هذه. »

خلع الملك قبعته و ارتدى القبعة الإلهية غير الموجودة... لو توقف الأمر عند القبعة لكان الملك بخير لكنه أصبح الآن في ورطة فقد توجب عليه خلع ملابسه القطعة تلو الأخرى حتى أصبح عارياً تقريباً و لا زال الجميع يصرخ « رائع -جميل -لم نر بجمال هذا... » توجب على كل حاضر قول هذا بصوت مسموع و إلا سيتساءل الآخرون عن هوية والده.

كان كل شخص يفكر أثناء إجماع الحضور على جمال الملابس كما يلي: إما أن يكون هناك خطأ في رؤيته أو أنه مخطئ بتحديد هوية والده الحقيقي... عندما يتحدث الآخرون بصوت واحد عن الملابس فلا بد أن يكونوا على صواب، إنه إجماع و لا يمكن أن تخطئ المجموعة... و بذلك اعتق كل واحد منهم بأنه وحده المخطئ و لو بقي صامتاً لاعتقد الآخرون بأنه لا يرى.

الملك الآن في غاية الرعب، أيخلع القطعة لأخيرة أم لا، يخشى من جهة أولى أن يراه الآخرون عارياً، و من جهة ثانية إذا ظهر للعالم أنه مولود غير شرعي فسيكون في خطر، قد يكون من الأفضل قبول العري و الاحتفاظ بأبوة والده و بعائلته المالكة، ثم فكر « سيراني الناس عارياً، و ما المشكلة: إذا قال الجميع

بأنهم يرون الملابس فمن الممكن أن تكون هي الحقيقة و أنا المخطئ الوحيد... » لذلك خلع قطعته الأخيرة و وقف عارياً.

فقال الرجل « الآن نزلت ثياب الآلهة إلى الأرض لأول مرة، من المناسب أن تستقل عربة و تخرج في موكب ملكي برحلة حول العاصمة. »... كان الملك غاية في الرعب لكن لم يكن هناك مفر.

عندما نرتكب خطأً في المرحلة الأولى سيكون من الصعب للغاية التوقف عنه في أي مرحلة لاحقة كما يصعب التراجع أيضاً... إذا لم تكن شريفاً في البداية ستتابع ارتكاب الحماقات و الأباطيل في كل خطوة تالية و سيصعب عليك تحديد نقطة العودة لأن المراحل و الخطوات متشابك بعضها ببعض.

لم يستطع الملك الرفض لذلك استقل عربة و خرج برفقة موكبه... اجتمع سكان المدينة بالكامل ليروا الملابس الإلهية و بكل تأكيد قالوا يصرخون « يالجمالها. »

طفل واحد صغير فقط كان على كتف والده صرخ « انظر يا والدي، لقد خرج الملك عارياً. »

obeikandl.com

فقال الوالد « اصمت أيها الغبي، لازلت صغيراً و لم تختبر الحياة، عندما تكبر و تكبر تجربتك الحياتية سترى ملابس الملك بالتأكيد... أنا أراها جيداً.»

أحياناً ما يقول الأطفال الحقيقة ولكن لا يمنحهم البالغون الفرصة... لدى البالغين بعض الخبرة و في هذا بعض الخطورة، فبسبب خبرته قال الوالد « اصمت، عندما تكبر و تصبح خبيراً سترى الملابس، نحن خبراء و نراها؛ لسنا مجانين. »

يقول الأطفال أحياناً « لا نرى آلهة في الصنم أو في التمثال. »

فيقول البالغون « اصمت، الإله ساكن هناك لكنك لا تراه، لكنك عندما تكبر و تصبح خبيراً ستراه جيداً.»

وقع إنساننا في مصيدة ذات أبعاد فلكية، و عندما يقع الجميع في مصيدة واحدة سيصعب على أي منهم ملاحظة ذلك... عليك أن تتحرى و تستنتج فيما إذا كانت ملابس المعرفة -التي نظنها ملابساً -ملابساً حقيقية أو أنك كالملك تقف عارياً بملابس غير مرئية و غير موجودة... عليك أن تختبر كل فكرة في عقلك وفق المقياس التالي « أأعلمها حقاً ؟» و إذا لم تكن كذلك فأعد العدة لدخول الجحيم أو عليك المضي قدماً في هذه العبودية لهذه المعرفة الوهمية.

obeikandl.com

أول شروط المصداقية المعرفية أن نقول لا نعلم لأي شيء لا نعلمه و إلا ستكون أولى مراحل النفاق و الرياء... عادة ما لا نستطيع اكتشاف الخدع الكبيرة أما الصغيرة منها فيسهل ذلك، فإذا احتال عليك أحدهم بليرات قليلة سيسهل عليك اكتشاف ذلك، أما إذا وقف أحدهم بيدين مبسوطتين أمام صنم حجري وقال « إلهي... إلهي » و هو يعلم يقيناً بأنه حجر ولا يوجد أي إله، سيبدو هذا الإنسان صادقاً و تقياً و لكن في الحقيقة يصعب أن تجد منافقاً أكبر منه في هذا العالم، إنه يقول و يقول دون أن يمتلك أي شعور داخلي لكنه لا يملك أيضاً الشجاعة الكافية لفهم ما يقول و ما يفعل.

يمحص الشخص المتدين و يعلم ما يعلم و ما لا يعلم، و هذا التمحيص أول خطوة من خطوات التدين الحقيقي... ليس المتدين هو من يقول بأنه يعرف الله و بأنه تعرف على الروح وبأنه قد رأى الجنة و الجحيم، بل المتدين هو من يقول « أنا جاهل تماماً و لا أعلم شيئاً... ليست لدي أية معرفة... أنا لا أعرف حتى نفسي فكيف لي أن أدعي معرفة الوجود، لا أعرف الحجر الذي أمام منزلي فكيف لي أن أقول بأني أعرف الألوهية!!... الحياة غامضة و غير معروفة... أنا لا أعرف شيئاً. »

obeikandi.com

إذا كانت لديك شجاعة أن تكون جاهلاً و شجاعة قبولك بهذا الجهل فتستطيع الشروع برحلة التحرر من مأزقك الفكري، و إلا لن تكون قادراً حتى على التحرك... هناك شيء يجب أن نفهمه جيداً: نحن جاهلون تماماً و لا نعرف شيئاً، و كل ما نبدو عليه من معارف ليس سوى وهم و خداع؛ ليس سوى معارف مستوردة نتنة... كل ما نعرفه بركة و ليس بئر، و إذا أراد أحدنا لنفسه حياة كريمة فلا بد له من التحرر من وهم البركة.

أمر آخر و أخير علينا التنبه له: علينا ألا نقارن... عندما أتحدث إليك فإنك تقارن ما أقول بما قال أحد ممن تحب أو ممن لا تحب، لن تستطيع سماعي عندها و ستفقد وقتك بتلك المقارنة... من الخطأ إقامة المقارنة بين شخصين، لأنهما مختلفين تماماً و لا يوجد فيهما ما هو متشابه، لا يمكن أن تجد ورقتين متماثلتين في شجرة واحدة و لا يمكن أن تجد حجرين متماثلين... لا يمكن أن تجد ما هو متماثل و متشابه بين آراء شخصين، قد يوجد تشابه ظاهري في بعض الجوانب و لكن لكل تميزه و فرديته فلا يوجد تماثل جوهري.

obeikandi.com

عندما تقارن كلامي بكلام أحدهم سيكون هذا الكلام عائقاً بيني و بينك و لن تستطيع كلماتي الوصول إليك و لن تكون بيننا أية علاقة مباشرة.

و لذلك لا حاجة للمقارنة و محاولة البحث عن القواسم المشتركة فهذا عديم المعنى و لن يستفيد منه أحد.

لكن المقارنة عادة شائعة في حياتنا، فلا نستطيع تقييم شيء مثلاً دون مقارنته بشيء آخر، لا نمتلك الحس الابتكاري لتقييم الأشياء لذلك نلجأ للمقارنة و عند المقارنة يبدأ الخطأ.

إذا نحن قارنا زهرة النرجس مثلاً بالوردة الجورية فعندها نكون قد وقعنا في الخطأ، النرجس نرجس و الورد الجوري ورد جوري... لا النرجس أفضل من الورد الجوري و لا الورد الجوري أفضل من النرجس و لا هما متساويان، ولكن لكل منهما فرديته و حياته المميزة... لا يوجد أفضل و أدنى و لا يوجد مساوٍ و غير مساوٍ... كل شيء يساوي نفسه و لا شيء آخر. إذا تمكنت فردية هذه الأشياء؛ شخصيتها أو تميزها من الظهور لدينا نكون عندها قد نجونا من المقارنة.

لكننا اعتدنا مقارنة جميع الأشياء بجميع الأشياء حتى بدأنا نقارن الأطفال بعضهم ببعض كأن نقول لأحدهم « انظر إلى الطفل فلان فقد تفوق عليك و لا زلت متأخراً عنه. » و في هذا

ظلم للطفل الأول و عدم إنصاف لأن الطفل فلان هو فلان والطفل الأول هو هو، و لا مجال للمقارنة فهما مختلفان في الوجود؛ مختلفان في الفردية و الجوهر و لا علاقة بينهما.

تعلم أنظمتنا الثقافية المقارنة؛ نظامنا الفكري متورط في المقارنة و كانت النتيجة عدم قدرتنا على التقييم، و النتيجة من ذلك عدم قدرتنا على فهم شخص ما أو فكرة ما بفرديتها فهناك العديد من الأشياء بيننا و تحول دون فهمنا.

كل إنسان مميز، كل إنسان هو نفسه في هذا العالم و لا يوجد شخصان متماثلان و لا يوجد حدث يتكرر مرتين... في الحياة لا يوجد ما هو قابل للتكرار... الحياة إبداع مستمر للفردية و لا حاجة للمقارنة.

انظر إلى الحياة نظرة مباشرة و لا حاجة للمقارنة و لاستحضار أشياء سابقة... يشبه كل إنسان نفسه و لا يوجد مساو و غير مساو.

القاعدة الأهم في الحياة هي: كل إنسان يشبه نفسه، لكننا إلى الآن غير قادرين على قبولها، لسنا لقبول فردية كل منا كما هي بل نريد لأنفسنا أن نكون نسخاً مكررة... فقد يقول أحدنا لابنه « كمال جنبلاط معلم مرموق و أريدك أن تكون

obeikandi.com

مثله.. » لا يعلم هذا الوالد أن في ذلك انتقاص لفردية هذا الطفل، ولد كمال أول و يكفي، فما حاجتنا لآخر ؟؟

أن نطلب من أحدهم أن يكون مثل كمال جنبلاط يعني أن نحرمه حقه الطبيعي في أن يكون نفسه و نمنحه فقط حق تقليد شخص آخر... نجبره على أن يكون نسخة كربونية ونحرمه من أن يكون نسخة أصلية... إذا كان كما نرجساً فلماذا نحرم الأخر أن يكون ورداً جورياً.

obeikandl.com